الفصل الأول

عَصْرُ الخنسَاء

١ ــ الجاهليون والمخضرمون

٢ ــ الشعر الجاهلي والشك فيه

٣ ــ بيئة الخنساء

الفصل الأول

عصر الخنساء

١ ـ الجاهليون والمخضرمون

الحديث عن عصر « الخنساء » يبدو سهلا قريب المنال ، فإن تكن « تماضر » شهدت مبعث النور فى الجزيرة ، ورأت انحسار الظلمات وانهيار الوثنية ، فقد عاشت الشطر الأهم والأحفل من حياتها ، فى أخريات العصر الجاهلى ؛ ولم تدرك الإسلام إلا بعد أن اكتملت حياتها الفنية بوجه خاص ، وشارفت نهايتها .

ومن أجل هذا جاز أن تنسب فنيًّا إلى العصر الجاهلى ، وإن كانت حياتها قد امتدت فى الواقع إلى ما بعد الإسلام سنين عدداً .

قال « ابن قتيبة » : « وهى جاهلية ، كانت تقول الشعر فى زمن النابغة الذبيانى »[١]

وهى جاهلية كذلك ، عند « ابن سلام »[٢] .

وشأنها فى ذلك شأن « لبيد بن ربيعة » الذى اكتملت حياته الفنية فى الجاهلية ، وإن عاش فى ظل الإسلام طويلا .

ولكن الفترة الأخيرة من الجاهلية : كانت بطبيعتها فترة قلق وإرهاص ، وتطلع إلى حياة جديدة . ومن هنا يمكن أن نجد فى شعرها ملامح الخضرمة المرهصة بالتحول والانتقال . ثم تزداد ملامح الخضرمة وضوحاً . فى الشعراء الذين ظلوا فى الميدان بعد المبعث ، مثل « حسان بن ثابت » الذى امتدت حياته الفنية فى العصر الإسلامى ، وشارك بشعره فى المعركة التاريخية الكبرى بين التوحيد والوثنية ، وكان شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم فى الإسلام ، كما كان شاعر الخزرج فى الجاهلية ، ومثله « كعب بن زهير ، والنابغة الجعدى . وعبد الله بن الزبعرى » .

---

(١) « الشعر والشعراء » ٣٠٢/١ ط دار إحياء الكتب العربية . القاهرة ١٣٤٦ هـ .

(٢) « طبقات الشعراء » : طبقة شعراء المراثى .

وإذ تحدد عصر « الخنساء الشاعرة » بأخريات الجاهلية ، فذلك لا يعفينا من الإشارة إلى المشكلة الفنية الكبرى التى تواجهنا حين نتحدث عن شاعر مخضرم ، عاش فى فترة القلق والإرهاص ، أو عاصر شعره مرحلة التحول الكبرى وشهد أخطر ثورة عرفتها الجزيرة العربية فى تاريخها الطويل ، وأعنى بها ظهور الإسلام .

وموضع الدقة فى الحديث عن المخضرمين ، هو صعوبة التوفيق بين تقديرنا لأثر الحادث الفذ الذى غيّر مجرى التاريخ الدينى والأدبى والاجتماعى والاقتصادى للعرب أجمع ، وبين ما يجب تقديره من خطأ التسليم بأن الشعر قد تغير بين يوم وليلة ، وأن الشاعر الجاهلى قد أبْدِل خلقاً فنياً جديداً[١] .

ويزيد الأمر دقة وحرجاً ، تلك المشكلة الأخرى التى ظلت زماناً موضع الخطأ ومظنة الاشتباه ، وهى مشكلة « موقف الإسلام من الشعر » بعد ما نزلت الآيات القرآنية الكريمة :

« وما علّمناه الشعر وما ينبغى له »[٢] .

« والشعراءُ يتبعُهم الغاوون • ألم تر أنهم فى كلِّ وادٍ يهيمون • وأنهم يقولون مالا يفعلون »[٣] .

فلقد تعجل غير قليل من المؤلفين ، فصرفوا هذا الحكم على الشعر بعامة ، دون أن يلتفتوا إلى ما كان من احتفاء الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، بالشعراء إلى حدٍّ جعله يخلع بردته على الشاعر « كعب بن زهير »[٤] إثر إنشاده « بانت سعاد »[٥] ويدعو للنابغة الجعدى ألا يفضّ الله فاه[٦] ، كما جعل ، صلى الله عليه وسلم ، من الشعر سلاحاً ذا خطر فى معركته المجيدة ، واتخذ له كتيبة

---

(١) عالجت قضية المخضرمة فى كتاب « قيم جديدة للأدب العربى » الذى نشره معهد البحوث والدراسات العربية » بالقاهرة ، سنة ١٩٦٧ .

(٢) من آية ٦٩ سورة « يس » .

(٣) الآيات ١٢٤ – ١٢٦ من سورة « الشعراء » ، سنة ١٩٦٧ .

(٤) « الاستيعاب » ، و « السيرة » لابن هشام .

(٥) اطلبها فى ديوان كعب بن زهير ص ٦ ط دار الكتب القاهرة ١٩٥٠ .

(٦) الاستيعاب : ١٥١٦/٤ ط نهضة مصر .

من شعراء اختصوا به ، ومنهم « حسان بن ثابت » الذى حدثوا أن الرسول كان يستحثه على هجو المشركين فيقول : « قل وروح القدس معك »[١] .

والشاعرة « الخنساء » أقرب نسباً إلى العصر الجاهلى بوجه عام ، وهذا قد يعفينا من التعرض هنا بمزيد تفصيل لهاتين القضيتين النقديتين ، وتتبع الآراء والأقوال فى كل منهما ، ومحاولة استبانة وجه الحق فيهما . فحسبى هذه الإشارة العجلى ، أمهد بها للحديث عن عصرها الفنى وهو نصف القرن الأخير من العصر الجاهلى تاركة لمن يشاء أن يقرأ كتاب « قيم جديدة للأدب العربى » وقد عالجت فيه القضيتين بمزيد تفصيل وبيان .

٢ ـ الشعر الجاهلى والشك فيه

على أن القول بانتمائها فنياً إلى الجاهلية ، لا يعفينا من التعرض لمشكلات أخرى تواجه دارس الشعر الجاهلى .

وأول ما يلقانا منها ، قضية الشك فى هذا الشعر ، وهى قضية قديمة أتعبت الرواة والنقاد من زمان ، وشغل بها المؤلفون منذ عصر التدوين : فابن سلام ، يبدأ كتابه (طبقات الشعراء)[٢] بحديث طويل عن نحل الشعر وأسبابه ، ويصف ما كان من عبث الأهواء والرواة به . و « أبو العلاء المعرى » يقدم فى جنة الغفران ثم فى الجحيم ، عدداً من الشعراء ، يسألهم عما نسب إليهم من شعر فينكرونه ، ويتهمون رواته[٣] .

على أن المسألة لم تأخذ وضعاً خطيراً حتى نقلها أستاذنا « الدكتور طه حسين » إلى مجال الدرس الجامعى ، وأفردها بالبحث المستقل فى كتابه المشهور ، (الشعر الجاهلى) وكان أهم ما استند إليه فى اتهامه هذا الشعر ، هو أن ما وصل إلينا منه موحّد اللغة ، مع أن أصحابه ينتمون إلى قبائل شتى ، مختلفة

---

(١) « السيرة » لابن هشام ، والاستيعاب ١ / ٢٤٥ .
(٢) راجع الصفحة ٣٩ وما يليها طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٢ ـ ذخائر .
(٣) رسالة الغفران : تحقيق الدارسة ، ط الذخائر ـ فى مواضع متفرقة .

اللغات متعددة اللهجات . وتعليل ذلك عنده ، أن هذا الشعر قد نُحِل بأخرة ، بعد أن سادت لغة قريش بنزول القرآن الكريم بها . أما أسباب هذا الانتحال ودواعيه ، فقد بين الأستاذ الدكتور ، الدور الخطير الذى لعبته العصبية والسياسة والدين والشعوبية ، فى هذا الميدان . كما أوضح ما للرواة ، من نشاط فى وضع الشعر ، فى عصر التدوين المفتون بتسجيل تراث العرب الفنى ، مما أغرى الرواة باحتراف « رواية الشعر » واتخاذها مهنة تدرّ عليهم الرزق وتكسبهم المجد ، فرحل الراحلون منهم إلى البادية ، وانطلقوا فى أنحاء الجزيرة يجمعون ما وعى الأبناء عن الآباء والأجداد من شعر الجاهلية ، ثم عادوا يباهون بما حفظوا ، غير متحرجين من الإضافة إليه استكثاراً من البضاعة ، واستزادة من الربح المادى والأدبى . ولم تكن الحياة الدينية إذ ذاك بالتى تزع أمثال أولئك المرتزقة برواية الشعر .

كل هذا يقال ، ولكن يقال معه : إن دعوى الشك فى الشعر الجاهلى جملة ، لا ينهض بها مانسلم به من أسباب النحل ودواعيه . وإنما أقصى ما يمكن أن تعطيه هذه الأسباب ، هو أنها أضافت إلى الشعر الجاهلى ما ليس منه ؛ لكن ليس إلى ذلك المدى الواسع النطاق الذى يجعل شعر العصر كله موضع الاتهام .

ويضاف إليه ، أن حركة الجمع والتدوين لتراث الجاهلية ، قامت أول ما قامت ، مواجهةً لفشوّ العجمة أثراً للمخالطة اللغوية ، ومناهضةً للغزو الشعوبى الذى تعرضت له العربية ابتداء من العصر العباسى ، لما فتحت الأبواب أمام التيارات الدخيلة الوافدة مع الأعاجم ، الذين انتصرت الدعوة العباسية بسيوفهم ، ومكنت لهم من النفوذ اعترافاً بجميلهم . فكان على حُماة الإسلام ، أن يجمعوا تراث العربية ويدونوه حماية للفصحى : لغة القرآن الكريم ، ولسان الدولة الإسلامية .

فبقدر الحاجة إلى ذلك التراث ، لمعرفة أصيل ألفاظ العربية وطرق اشتقاقها ونحوها وأساليبها فى التعبير والبيان ، كان الحرص الشديد على فحص بضاعة الرواة . وإذ كانت الغاية من الحركة خدمة كتاب الإسلام الخالد ، وفهم مفرداته وإعرابه وبيانه ، أضفى ذلك على الرواية حرمةً يكفى لإدراكها أن

نقرأ فى ترجمة «أبى عمرو بن العلاء» — من أئمة الرواة — أنه أحرق مدوّناته من الشعر، وكانت تملأ بيتاً له إلى قريب من السقف[١]، لما عرف أن فيما روى، بيتاً منحولا للأعشى، وظل ما عاش يستغفر الله.

واستطاع خبراء الشعر فى عصر مبكر، أن يزنوا الرواة بأدق موازين الجَرْح والتعديل، فميزوا الوُضّاع منهم، والأمناء الثقاة.

ويقال كذلك: إنه كان للشعر فى عصور التدوين الأولى، علماؤه الخبراء به، يعرفونه بكثرة المدارسة، كما يعرف الجوهرى صنوف الجوهر، وكما يعرف الصيرفى الدرهم والدينار، وهو قول «ابن سلام» فى مقدمة كتابه[٢]. وبمثل هذه الخبرة الفنية الدقيقة، رأينا العلماء يرفضون من الشعر ما يرفضون، ويقبلون ما يقبلون[٣].

وقد كان هؤلاء العلماء، شديدى التنبه لما نال الشعر الجاهلى من عبث الأهواء ومنحولات الرواة، لكن هذا التنبه لم يحل دون اطمئنانهم إلى المروىّ جملة، واشتغالهم بالشعر الجاهلى دراسة وتأريخاً ونقداً.

وربما أمكن أن يقال أيضاً، إن الذين انتحلوا الشعر وأضافوه إلى الجاهليين التماساً للمنفعة فى عصر التدوين، أو إرضاء لأهواء العشائر والأحزاب والعصبيات أو . . أو . . كانوا بلا ريب يحرصون أشد الحرص على أن يكون هذا الشعر المنحول، ممثلا للذى سلم إلى عهدهم من تراث الجاهلية الفنى، كيما تجوز نسبته إلى شعرائها، وحتى يفوت علماء الشعر إدراكُ زيفه، أو يشكل أمره عليهم بعض الإشكال، كما نص على ذلك «ابن سلام»[٤].

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين، ١/٣٢١، ط القاهرة ١٩٤٨.

(٢) «طبقات الشعراء».

(٣) راجع الفصل الذى كتبناه عن «الرواية» فى كتاب «الغفران: دراسة نقدية» صفحة ٢٤٨ ط ثانية المعارف ١٩٦٢.

(٤) طبقات الشعراء، ص ١٤ ط بريل.

وهذا يجعل للشعر المنحول، الذى فات أولئك العلماء أن يكشفوه ، حظه من التقدير ، من حيث دلالته على عصره ، وتمثيله للخصائص الفنية للشعراء الجاهليين .

يقال هذا كله ، فلا يبقى بعده إلا ما ذكره أستاذنا «الدكتور طه حسين» من كون الشعر الجاهلى لا يظهر فيه ما ثبت تاريخيًّا من اختلاف لهجات القبائل التى ينتمى إليها الشعراء الجاهليون . ولا نكتفى فى الرد على هذا بأن بقايا تلك اللجهات قد وُجِدت فعلا ، وما تزال كتب النحو واللغة والأدب تحمل آثاراً منها فى الشواهد المحفوظة ، بل نقول كذلك : إن الطبيعة الاجتماعية للحياة اللغوية تجعل لغة الفن المعبر عن الوجدان ، غير اللغة المستعملة فى الحياة اليومية ، وهذا أصلٌ لا مفرّ من التسليم به ولو لم تمض إلى بعيدٍ ما ذهب إليه بعض المستشرقين ، من أنه كان هناك فعلا لغتان لعرب الجزيرة ، إحداهما ملحونة وهى لغة الحديث ، وأخرى معربة سليمة وهى لغة الأدب .

ونحن اليوم نلتقى فى المجامع والمجالس ، فنتبادل الحديث بلهجات شتّى : صعيدية وساحلية ، ريفية وقاهرية ، لكنا إذا كتبنا أو تحدثنا فى مجتمع رسمى ، استعملنا لغة موحدة لا يبدو فيها أثر لاختلاف لهجاتنا . وهذه ظاهرة عامة ، تشهدها مناقشات الجماعة ، فى محفل أو مجلس ، أو ساحة القضاء ، فإذا قرئت محاضر الجلسات لم يبدُ فيها أثر من تعدد اللهجات المحلية .

وشعراء العربية اليوم ، يتكلمون بلهجات متعددة شتّى ؛ ويعيشون بها فى بيئاتهم وأقاليمهم ، لكنهم فى الشعر يستعملون الفصحى المشتركة ، ولسنا مع ذلك ننكر أشعارهم أو نستريب فى نسبتها إليهم ، بدعوى أنها لا تمثل لهجاتهم الإقليمية .

وأيًّا ما كان الأمر فى تباعد ما بين لهجات القبائل العربية قبيل الإسلام ، فالذى لا شك فيه أن وجود احتمال لما ذكرتُ من ثنائية اللغة ، يكفى وحده للرد على إنكار الشعر الجاهلى لعدم تمثيله للهجات .

ولم ننس أن الاختلاف فى الشعر الجاهلى لم يكن بين لهجات لغة واحدة فحسب ، وإنما كان أيضاً خلافاً بين أكثر من لغة . لكننا لا ننسى كذلك أن

لغات الجزيرة كانت تتقارب رويداً رويداً فى أخريات الجاهلية ، بفضل التبادل التجارى ، والمواسم الدينية ، والأسواق الأدبية . وقد أوشك هذا التقارب أن يصير إلى ما يشبه اللغة الموحدة قبل الإسلام . والذى بين أيدينا من الشعر الجاهلى ، لا يتجاوز عمره القرن الثانى قبل المبعث ، وقد جاء الإسلام وشعراء القبائل ، يجتمعون فى الموسم بمكة ، ويتبارون فى مجال القول . وربما احتكموا إلى شاعر فحل كالنابغة ، ما كان ليستطيع أن يفهم عنهم — فضلا عن أن يحكم بينهم — لو أن كل واحد منهم كان يقول الشعر بلغة محلية لقبيلته .

وإذا لم تكن الوحدة السياسية بين قبائل العرب قد تحققت ، فإن الوحدة اللغوية كانت فى سبيل الظهور ، بهجرة القحطانية إلى الشمال ، وغلبة اللغة العدنانية : منزل المهاجرين ، ومثابة الحج ، وملتقى التجار والشعراء من شتى أنحاء الجزيرة .

وقد بلغ من تقدير بعض المستشرقين لأثر هذا التقارب اللغوى الذى يشبه التوحد ، أن آثروا تحديد ما يسمى « بالمحيط العربى » قبيل الإسلام ، بحدود اللغة العربية . وفى ذلك يقول المستشرق « بلا شير » فى تعريف المحيط العربى : « إن أفضل أساس لتحديد المحيط العربى حتى أواخر القرن السادس الهجرى هو الأساس اللغوى . . فلنطلق اسم العرب على جماعة يتخذون فى نظرنا اللغة العربية أداة للتخاطب والتفاهم »[1] .

وبعد أن يشير إلى ما قيل من اختلاف لغات العرب ، يمضى فى بيان هجرات قبائل الجزيرة ، وما كان لهذه التنقلات الجماعية من آثار ، فيقول : « والتوسع اللغوى سابق على ما يُظن للتاريخ الميلادى ، وعلى كل حال ، فقد أصبح استعمال العربية زمن النبى محمد — صلى الله عليه وسلم — أمراً شائعاً ، إن لم يكن عند قبائل اليمن وحضرموت ، فعلى الأقل عند القبائل الضاربة فى تهامة أو شواطئ البحر الأحمر ، وفى الداخل فى المنطقة الواقعة بين نجران والجوف اليمنى . ولم يرد فى المصادر القديمة التى تقص مقابلة الرسول — عليه الصلاة

(١) ريجيس بلا شير : « تاريخ الأدب العربى » ، ص ٢٧ و ٢٨ من الترجمة العربية ، للدكتور إبراهيم الكيلانى — ط دمشق ١٩٥٦ .

والسلام — سنة ٦٣١ (م) للوفود القادمة من الجنوب ، أن الوفود اليمنية استعملت فى التخاطب اللغة العربية الجنوبية ، كما أن الدعاة الذين أوفدهم الرسول — صلى الله عليه وسلم — لهداية قبائل تلك المنطقة ، كانوا يتكلمون بالعربية فى دعوة القبائل الضاربة على تخوم اليمن » .

وليس معنى الاطمئنان إلى هذا التوحد اللغوى ، أن آثار اللغة الجنوبية قد انمحت تماماً ، فبلاشير نفسه لم يجرؤ على هذا الزعم . وإنما أراد أن يقرر : «أن حركة التعريب قد توصلت إلى زحزحة اللغة الجنوبية جزئياً أو كلياً ، فالمهم تقرير توفر الشروط فى القرن السادس ، لنشوء علاقات متواصلة بين المحيطين العربى ، والعربى الجنوبى ، لا يعوقها اختلاف اللهجات » .

و « الخنساء » قد عاشت فى هذه الفترة التى تقاربت فيها لغات الجزيرة ، ولم يكن يعوز هذا التقاربَ اللغوى فى المحيط العربى ، لكى يتم خطوته الواسعة نحو التوحد ، إلا أن ينزل كتاب الإسلام المعجز بلغة قريش ، فيبهر أمراء البيان فى أنحاء ذلك المحيط .

وبقيت مع ذلك آثار من لهجات القبائل ، فى الحروف السبعة ، إلى أن اجتمع المسلمون على قراءة كتابهم الدينى بلغة موحدة ، فى المصحف العثمانى الإمام .

٣ — بيئة الخنساء

ونفرغ من قضية الانتحال ، فتلقانا أخرى هى اعتبار الجاهلية عصراً أدبياً عاماً موحد الخصائص ، يبدأ به تقسيم الأدب إلى عصور ذات حدود زمنية فاصلة ، وهو تقسيم جاهدت الدراسة الجامعية الحديثة لبيان الخطأ فيه ، وأبت أن تسلم أن يوماً بعينه يمكن أن يكون حداً حقيقياً فاصلا بين عصرين من عصور الأدب ، أو أن الحياة الأدبية فى عصر ما ، كالعباسى أو الأموى ، يمكن أن تندرج تحت حكم واحد ، على اتساع الرقعة وتباين الأقاليم واختلاف صلتها بالعربية والإسلام : قرباً وبعداً ، وأصالة وحداثة .

لكن هذه المشكلة لا تبدو معقدة فى عصر « الخنساء » مثلما تبدو فيما تلاه من

عصور ، إذ كان الأدب العربى قبل الإسلام لا يزال فى جزيرته ، لم يخرج منها إلا لماماً وفى نطاق ضيق ، مع التجار أو الشعراء الوافدين على ملوك البلاد المجاورة . ومن هنا لم تخالطه عناصر أجنبية إلا فى أضيق الحدود التى لا تنجو منها لغة ما دامت تعيش . ذلك أن عزلة الجزيرة نسبياً — مع مشاق السفر ، وصعوبة الانتقال على الإبل عبر بوادٍ جرداء موحشة السبل — حفظت للعربية قبل الإسلام ، مقوماتها الأصيلة وخصائصها المميزة ، وظلت كذلك فترة بعد انطلاقها من جزيرتها عقب الفتوح الإسلامية الكبرى ، ريثما خالطت ألسنة الشعوب الطارئة على العربية ؛ مما جعل الرواة واللغويين فى عصر التدوين ، يلتمسون العربية فى موطنها الأصيل ، ويقفون بالاستشهاد عند عصر مبكر ، لا يتجاوزونه .

وهم ، مع ذلك ، لم يجعلوا شعراء الجاهلية سواء ، بل قصروا الاستشهاد على الخُلَّص منهم الذين لم يختلطوا بالأمم الأخرى . وأبوا — مثلا — أن يستشهدوا بشعر شاعر كعدى بن زيد ، لأن إقامته بالحيرة قد « ألانت منطقه وسهلت لسانه » وباعدت بينه وبين مهد الفصحى الأصيلة[1] .

فأنت تراهم إذن ، قد رفضوا أن يدرجوا شعراء العصر الجاهلى تحت حكم واحد ، رغم الذى ذكرنا من قلة حظه من الاختلاط ، وبعده نسبياً عن التأثر بالمؤثرات الخارجية .

« وعصر الخنساء » وإن كان يسبق ظهور مشكلة الاختلاط التى صار معها تقسيم الأدب إلى عصور زمنية ، خطأ علمياً وتاريخياً ، قد تميزت فيه مع ذلك بيئاتٌ لكل منها سمات خاصة وطابع مميز منشؤه الإقليم والبيئة ، ولعل « ابن سلام » هو أسبق المؤلفين — فيما نعلم — إلى تقدير أثر البيئة الخاصة ، حين جعل شعراء القرى العربية : المدينة ، ومكة ، والطائف ، واليمامة ، والبحرين طبقة خاصة[2] .

---

(١) انظر « فحولة الشعراء للأصمعى » ٤٣ ط المنيرية بالأزهر . وكتابى « لغتنا والحياة » ص معهد البحوث والدراسات العربية .

(٢) نما هذا الملحظ ونضج مع الزمن ، فى مثل كتاب (الذخيرة) لابن بسام ، و (الخريدة) للعماد الإصفهانى الذى قسم فيها شعراء عصره ، باعتبار أقاليمهم . وقد طبعت القاهرة من (الخريدة) =

وإذا كان المتأخرون فى تقسيمهم الأدب عصوراً زمنية ، قد تابعوا الغربيين وبخاصة « بروكلمان » الذى قسم تاريخ الأدب العربى إلى عصر ما قبل الإسلام ، عصر النبى وصدر الإسلام إلى سقوط الأمويين إلخ ، فإن من المستشرقين أنفسهم من كرهوا أن يأخذوا الأدب الجاهلى أخذاً لمّا ، لا يفرق بين شاعر لم يخرج من باديته ، وآخر مقيم بالحجاز يختلط بالتجار العائدين من اليمن والشام فى رحلتى الشتاء والصيف ، وثالث شد رحاله إلى أمراء غسان أو ملوك الحيرة : فالدكتور « بلاشير » ، يصرح فى مقدمة كتابه ، أنه سينحرف فيه « عن كتاب بروكلمان فى تحديد العصور الأدبية ، وليس من العسير علينا أن نتبين ما يؤدى إليه هذا التقسيم من التباسات خطيرة ، فهو عوضاً عن أن يكون مستوحى من اعتبارات أدبية صرفة ، لا يعتبر فى الحقيقة إلا ثورات السلالات الملكية ، أو الحوادث التى كان لها دون ريب ، أثر فى تاريخ الإسلام ، بيد أن صلتها بالأدب تبدو غير متوافقة ولا حقيقية »[١] .

وميز « نلينو » فى كتابه (تاريخ الآداب العربية) أربع بيئات للشعر الجاهلى [٢] :

شعر أهل البادية ، أشعار من قصدوا ملوك الحيرة وبنى غسان وجالسوهم ، أشعار نصارى الحيرة ومملكة بنى غسان ، أشعار أهل الحضر وخاصة الحجاز .

غير أننا ، مع تقدم الزمن وتحرر مناهج الدرس الأدبى ، عدلنا عن هذا التقسيم ، فنظرنا إلى بيئات الشعر الجاهلى مميزين بين : شعراء القبيلة ، وشعراء البلاط ، والشعراء الصعاليك [٣] .

=القسم الخاص بشعراء مصر ، كما نشر المجمع العلمى بدمشق القسم الخاص بشعراء الشام ، ثم نشر مجمع بغداد قسم « شعراء العراق » .

ثم تأصل الملحظ فى نظرية الإقليمية فى تاريخ الأدب ، التى قدمها الأستاذ أمين الخولى إلى المنهج الحديث للدراسة الأدبية فى كتابه : « الأدب المصرى » ط المعارف .

(١) بلاشير : « تاريخ الأدب العربى » – ص ١٢ من الترجمة العربية ط دمشق .
وانظر معه « الأدب المصرى » لأستاذنا أمين الخولى ط المعارف .

(٢) ص ٥١ وما يليها ط – دار المعارف ١٩٥٤ .

(٣) انظر بيئات الشعر الجاهلى فى كتابنا « قيم جديدة للأدب العربى » .

وتأتى « الخنساء » مع شعراء القبيلة .

* * *

وإذ تحدد عصر الخنساء ، وتحددت بيئتها ، فلن نعيد ماملأ الكتب والأسفار من وصف لحياة العرب ببادية الجزيرة قبيل الإسلام ، وإنما يعنينا أن نحاول تحرير الفهم الشائع لهذه البيئة فى ذلك العصر ، فلقد فُهم من البداوة والرحلة ، وانتجاع القوم للكلأ حيث كان ، أن قبائل البدو كانت تهيم على وجهها فى نواحى الجزيرة ، منتقلة من شرق إلى غرب ، ومن شمال إلى جنوب ، دون أن تعرف لها مواطن تعيش فيها ومنازل تختص بها . ويبيح هذا الفهم الشائع أن يتصور أكثرنا أن القبيلة يمكن أن تعيش فترة فى البحرين ، وحينا فى تهامة ، وآناً بالحجاز ، وآخر بنجد أو عسير .

والواقع أن القبائل لم تكن ترحل هكذا بلا ضابط ولا قيد ، وإنما كان لكل منها مجالها الخاص الذى تقوم فيه حياتها على مدار السنة ، وفى حدود هذا المجال كانت تنتقل ، ولها فيه « المصطاف والمتربع » على ما قال قائلهم .

فقريش مثلا كان منزلها بمكة ، وثقيف بالطائف ، وطيئ وكندة مثلا ، كان منزلهما نجداً ، وتغلب وبكر بالجزيرة قرب الفرات ، والأوس والخزرج بيثرب ، وتنوخ فى البحرين قبل نزوحها إلى الشام . . وهكذا على ما نعرف من منازل القبائل العربية قبل الإسلام .

ولم تخلُ مناطق البدو من قيعان ومياه وأحساء ، وإلا استحالت الحياة فى الوادى الأجرد ، ولما ظلت الصحراء مسكن قبائل العرب من قديم ، لم يهجروها ولا استبدلوا بها سواها . .

لم تكن الخنساء إذن ، تعيش هائمة على وجهها ضاربة مع قومها فى مجاهل البادية ، ولا جهلت الموطن الغالى ، والدار ، والمنزل ، والحمى الذى لا يجوز أن يستباح . وإنما كانت تقيم مع العشيرة فى ديارها : «أرض بنى سُلَيم»[1] وحياة البدو لم تكن — على ما فهم كثير منا — حياة رعى فحسب ، وإنما

(١) تاريخ الطبرى : ٣/٢٣٦ ط الحسينية بالقاهرة .

كان منهم التجار ، وأصحاب الإبل سفن الصحراء ، وكان منهم حُرّاس القوافل وحماتها الذين يؤجرون لحراستها .

ونستطيع أن نلمح هذا الطابع التجارى ، فيما حفل به معجم العربية من ألفاظ وأساليب ، أصلُ استعمالها فى التجارة . كما نستطيع أن نلمحه كذلك ، فى أسلوب القرآن الكريم حين يتحدث عن هؤلاء القوم أو يتحدث إليهم ، إذ يحفل هذا الأسلوب باستعارات وتشبيهات مستمدة من بيئتهم التى سادتها الروح التجارية ، فى مثل قوله تعالى :

(أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) [١] .

(رجالٌ لا تلهيهم تجارة ولا بيعٌ عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، يخافون يوماً تتقلبُ فيه القلوب والأبصار) — النور ٣٧ .

(إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرًّا وعلانية ، يرجون تجارةً لن تبور) — فاطر ٢٩ .

(يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون .) — الصف : ١٠ ، ١١ .

(وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضّوا إليها وتركوك قائماً ، قلْ ما عند الله خيرٌ من اللهو ومن التجارة ، والله خيرٌ الرازقين) — الجمعة ١١ .

(إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم) [٢] .

وسنرى أثر هذه الروح فى شعر الخنساء .

ثم فى موقف ابنها (العباس بن مرداس) وشعره ، فيما أعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم ، مع المؤلفة قلوبهم ، من فىء حنين ، ورفضه أن يستجيب للرسول حين سأل صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يعتقوا سبايا هوازن ، وفيهن حواضنه وخالاته وعماته من الرضاعة ، نساء بنى سعد بن بكر ! [٣] .

---

(١) آية ١٦ سورة البقرة . واقرأ معها آيات : البقرة ١٦ ، ٧٩ ، ١٧٤ ، ٤١ ، ١٧٥ ، ٩٠ ، آل عمران ٧٧ ، ١٨٧ ، ١٧٧ ، التوبة ١٠ ، لقمان ٦ ، النساء ٤٣ ، نوح ٩٥ ، المائدة ١٠٩ .

(٢) التغابن ١٧ — واقرأ معها آيات : الحديد ١١ ، ١٨ ، والزمر ٣٥ .

(٣) السيرة : ٤/١٣٦ حلبى — وتاريخ الطبرى : ٣/١٣٧ .